٨
المُسْلِمُ مَعَ إِخْوَانِهِ وَأَصْدِقَائِهِ

يُحِبُّهُمْ فِي اللَّهِ:

إن من أبرز صفات المسلم الصادق حُبَّهُ لإخوانه وأصدقائه حُبّاً سامياً، مجرَّداً عن كل منفعة، بريئاً من أي غرض، نقيّاً من كل شائبة، إنه الحبُّ الأخويّ الصادق، الذي استمدّ صفاءه وشفافيته من مشكاة الوحي وهَدْي النبوّة، فكان نَسِيجَ وَحْدِهِ في العلاقات البشرية، وكانت آثاره في سلوك الإنسان المسلم فريدة في تاريخ المعاملات.

ذلك أن الرابطة التي تربط المسلم بأخيه مهما كان جنسُه ولونه ولغته، هي رابطة الإيمان بالله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (١)، وأخوّةُ الإيمان أوثقُ روابطِ النفوس، وأمتنُ عُرَى القلوب، وأسمى صِلات العقول والأرواح.

فلا عجب أن تثمر تلك الأخوّة الفريدة نَمَطاً من الحب عجيباً في سُموّه ونَقائه وعُمْقه ودَيْمُومَتِه، يسمّيه الإسلامُ الحبَّ في الله، ويجد المسلمُ الصادق فيه حلاوة الإيمان.

«ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإيمانِ: أن يكونَ اللَّهُ ورسولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِواهُمَا، وأنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلاّ لله، وأنْ يَكْرَهَ أنْ يَعودَ في الكُفْرِ بَعْدَ أنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كمَا يَكْرَهُ أنْ يُقْذَفَ في النّارِ»(٢).

---

(١) الحجرات: ١٠.

(٢) متفق عليه.

مَقَامُ المُتَحَابِّينَ فِي اللَّهِ:

ولقد جاءت الأحاديث الشريفة تَتْرَى، ترفع من مقام المتحابّين في الله، وتصوّر منزلتهم العالية التي أعدّها الله لهم في جنته، والشرفَ الرفيعَ الذي يسبغه الله عليهم يومَ يقومُ الناسُ لربّ العالمين.

من هذه الأحاديث حديثُ السبعة الذين يظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظلَّ إلّا ظِلُّهُ، وهم:

«إمامٌ عادلٌ، وشابٌّ نَشَأَ في عِبادَةِ الله عَزَّ وجَلَّ، ورجلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بالمَساجِد، ورَجُلانِ تَحابّا في الله، اجْتَمَعَا عَلَيهِ وتَفَرَّقا علَيْهِ، ورجلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذاتُ حُسْنٍ وجمالٍ فقالَ: إنّي أَخافُ الله، ورجلٌ تَصَدَّقَ بصَدَقَةٍ فأَخْفَاها حتّى لا تعلمُ شِمالُهُ ما تُنْفِقُ يَمينُه، ورجلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خالِياً ففاضَتْ عَيْناهُ»[1].

فهذا نصٌّ صريح يَسْلُكُ المتحابّيْنِ في الله في زمرة السبعة المُصطَفَيْنَ الأخيار، الذين أظلّهم الله في ظلّه، وشملهم برحمته وبرّه، وفي ذلك تكريم لهم أيّ تكريم!

وحَسْبُ المتحابِّينَ في الله شرفاً أن ربّ العزّة يحفلُ بهم في ساحة الحشر يوم القيامة، فيقول:

أَيْنَ المُتَحابُّونَ بجلالي؟ اليومَ أُظِلُّهمْ في ظِلّي يومَ لا ظِلَّ إلّا ظِلّي»[2].

فما أرفعَه من شرف! وما أوفاه من جزاء! يلقاه المتحابّون الصادقون في الله، يوم الشدّة والهول والكرب الشديد.

ذلك أن الحب في الله، لا لشيء آخر في هذه الحياة الحافلة بالمطامع

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

والمنافع والشهوات مُرتَقىً صعب، لا يستطيع بلوغه إلاّ مَنْ صَفَتْ نفوسُهُم، وسَمَتْ أرواحُهم، وهانت عليهم الدنيا بجانب مرضاة الله، فلا غروَ أن يعدّ الله لهؤلاء من المكانة والنعيم ما يليق بسموّهم في الدنيا وارتفاعِهم على شواغلها وحطامها، نجد ذلك فيما رواه معاذ عن النبي ﷺ، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«قالَ اللَّهُ عزّ وجلّ: المُتحابُّونَ في جَلالي لهمْ مَنابِرُ مِنْ نُورٍ، يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ والشُّهداءُ»[١].

بل لا غروَ أن يَحْبُوَ اللَّهُ عبادَه المتحابِّين فيه ما هو أجلُّ وأسمى من تلك المنزلة وذلك النعيم، يحبوهم حبّه الغالي، الذي تتقطّع دونَه الأعناق، وتنتهي عنده مَعْسُولاتُ الأماني، وذلك في حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «أنَّ رَجُلاً زارَ أخاً له في قَرْيةٍ أخرى، فأَرْصَدَ اللَّهُ تَعالَى على مَدْرَجَتِه مَلَكاً[٢]، فلمّا أتَى عليهِ قالَ: أينَ تُريدُ؟ قال: أُريدُ أخاً لي في هذه القَرْيَة، قالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّها[٣] عَلَيْهِ؟ قالَ: لا، غيرَ أنّي أَحْبَبْتُهُ في اللَّهِ تَعَالَى، قالَ: فإنّي رسولُ اللَّهِ إليكَ بأنَّ اللَّهَ قَدْ أحبَّكَ كما أَحْبَبْتَهُ فيه»[٤].

فما أعظمه من حب، يرفع الإنسان إلى الدرجة التي يحبُّه الله فيها ويرضى عنه!

ويسمو التوجيهُ النبويُّ صُعُداً بالمسلم في هذا المُرْتَقَى العالي الوَضيء، إذ يقرر أن أفضل الأخوَيْنِ المتحابَّيْن في الله مَنْ كان أشدَّ حباً لأخيه، وفي ذلك يقول النبي ﷺ:

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

(٢) أي على طريقه.

(٣) أي تقوم بها.

(٤) رواه مسلم.

«ما تَحابَّ الرَّجُلانِ إلاّ كانَ أفْضَلَهما أَشَدُّهما حُبّاً لِصاحِبِهِ»[١].

بل إنه ليذهب إلى أبعد من ذلك في إشاعة المحبة في المجتمع المسلم الراشد، فيطلب من المسلم إذا أحبّ أخاه أن يخبره بأنه يحبه، وفي ذلك يقول النبي ﷺ:

«إذا أَحَبَّ الرَّجُلُ أخاهُ فَلْيُخْبِرْهُ أنَّهُ يُحِبُّهُ»[٢].

لقد كان الرسول الكريم صلوات الله عليه يدرك ما لهذا الحبّ النقيّ القويّ من أثر في بناء المجتمعات والأمم، فكان لا يدع مناسبة تمرّ إلاّ ويدعو المسلمين إلى التحابب، ويأمُرهم أن يعلنوا عن هذا التحابب، لتنفتحَ مغاليقُ القلوب، وتَشيعَ المودّةُ والصفاء بين الصفوف.

فعن أنس رضي الله عنه أن رجلاً كان عند النبي ﷺ، فمر به رجل، فقال: يا رسولَ اللَّهِ، إنّي لَأُحِبُّ هذا، فقالَ له النبيُّ ﷺ: «أَأَعْلَمْتَهُ؟» قالَ: لا، قالَ: أَعْلِمْهُ»، فَلَحِقَهُ فقال: إنِّي لَأُحِبُّكَ في اللَّهِ، فقالَ: أَحَبَّكَ اللَّهُ الّذي أَحْبَبْتَني لَهُ»[٣].

وكان رسول الله ﷺ يفعل ذلك بنفسه، معلّماً المسلمين كيف يبنون مجتمع المحبة والتوادّ والتآخي، وذلك حينما أخذ بيد معاذ وقال: «يا مُعاذُ، واللَّهِ إنِّي لَأُحِبُّكَ، ثم أُوصيكَ يا مُعاذُ: لا تَدَعَنَّ في دُبُرِ كلِّ صَلاةٍ تقولُ: اللّهمَّ أعِنّي على ذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[٤].

وقد انطلق معاذ ينشر شذى هذا الحبِّ الطاهر بين المسلمين في ديار

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

(٢) رواه أبو داود والترمذي وقال حديث صحيح.

(٣) رواه أبو داود بإسناد صحيح.

(٤) رواه أحمد بإسناد صحيح.

الإسلام، فيحدّثهُم بما سمع من رسول الله ﷺ عما أعدّه الله للمتحابِّين فيه من ثواب جزل، ومحبّة منه أكبر؛ فقد روى الإمام مالك في موطَّئِه بإسناده الصحيح عن أبي إدريس الخولاني قال: «دَخَلْتُ مَسجدَ دمشقَ، فإذا فتىً بَرّاقُ الثّنايا[1]، وإذا الناسُ معَهُ، فإذا اخْتَلَفُوا في شيء أَسْنَدوهُ إليه، وصَدَروا عن رَأْيه، فسألْتُ عنهُ، فقِيلَ: هذا مُعاذُ بنُ جَبَلٍ رضي الله عنه، فلمّا كانَ مِنَ الغَدِ هَجَّرْتُ[2] فوجَدْتُه قد سَبَقَني بالتَّهْجير، ووجَدْتُه يُصلّي، فانتظرتُه حتّى قضى صلاتَه، ثم جئتُه مِنْ قِبَل وجْهِهِ، فسَلَّمْتُ عليه، ثم قلتُ: والله إنّي لَأُحِبُّكَ، فقال: آللَّهِ؟ فقلتُ. أللَّهِ، فقالَ: آللَّهِ؟ فقلتُ أللَّهِ، فأخذَني بِحَبْوَةِ رِدائي، فَجَذَبَني إليْهِ، فقالَ: أَبْشِرْ، فإنّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «قالَ اللَّهُ تعالى: وَجَبَتْ مَحَبَّتي لِلْمُتَحابّينَ فِيَّ، والمُجالِسينَ فِيَّ، والمُتزاوِرِينَ فِيَّ، والمُتباذِلين فِيَّ».

تَأْثِيرُ الحُبِّ في اللَّهِ في حَيَاةِ المُسْلِمِينَ:

ويؤكد الرسول الكريم في حديث آخر أن هذه المحبّة بين المؤمنين شرطٌ من شروط الإيمان الذي يدخل صاحبه الجنّة، وذلك فيما رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال:

«والذي نَفْسي بيَدِهِ لا تَدْخُلون الجَنَّةَ حتّى تُؤْمِنوا، ولا تُؤْمِنوا حتّى تَحابُّوا، أوَلا أَدُلُّكُمْ عَلى شَيْءٍ إذا فَعَلْتُموهُ تحابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ»[3].

لقد أدرك النبي الكريم بثاقب نظرته التربوية التي استقاها من تأديب الله إياه، أنه لا يستلّ سخائم الحقد من الصدور، ولا ينتزع أدران التنافس والحسد من النفوس، إلّا أخوّةٌ صادقة عالية، تسود حياة المسلمين، وتقوم

---

(١) أي أبيض الثغر حسن المبسم.

(٢) أي بكّرت.

(٣) رواه مسلم.

على المحبّة، والتوادّ، والتناصح، والأُلْفَة، والبِشْر، وينتفي منها الكيد والغلّ والحسد والتجهّم والتباغض، ولذلك دعا إلى إفشاء السلام بين الإخوة، ليكون مفتاح القلوب للمحبة والتلاقي على الخير.

وكان صلوات الله عليه يكرر هذا المعنى على مسامع أصحابه، متوخياً إلقاءَ بذرة المحبة في القلوب، وتَعَهُّدَها بالرعاية، حتى تثمر ذلك الحبَّ الوضيءَ الكبيرَ الذي أراده الإسلام للمسلمين.

بهذه المحبة الناصعة بنى رسول الله ﷺ جيلَ الإسلام الأول الذي بلّغ رسالة السماء إلى الأرض، وكان القاعدة الصُّلْبَةَ التي حملَتْ صَرْحَ الإسلام الشامخ للناس.

وبدون هذه المحبة الصافية التي تفرّد بزرعها الإسلام في القلوب، ما كان المسلمون الأوائل ليستطيعوا التماسكَ والصمودَ في تحمّل تبعات الجهاد، وتقديم التضحيات الجسيمة في بناء دولة الإسلام ونشرِ أعلامه في الخافقين.

وبهذه المحبة الصادقة العجيبة استطاع رسول الله ﷺ أن ينشىء مجتمع المؤمنين الأمثل في تاريخ الإنسانية، الذي صوّر تماسكه العجيب أروعَ تصوير بقوله:

«المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كالْبُنْيانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً»(١).

وبقوله أيضاً:

«مَثَلُ المُؤْمِنِينَ في تَوادِّهِمْ وتَراحُمِهِم وتَعاطُفِهِمْ مَثَلُ الجَسَدِ، إذا اشْتَكَى منهُ عُضوٌ تَداعَى لَهُ سائِرُ الْجَسَدِ بالسَّهَرِ والْحُمَّى»(٢).

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

وبقوله أيضاً:

«المُسْلِمونُ كَرَجُلٍ واحِدٍ، إنِ اشْتَكَتْ عَيْنُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ، وإنِ اشْتَكَى رَأْسُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ»(١).

إن المسلم الواعي الصادق لا يسعه أمام هذا الهَدْي النبوي العالي إلاّ أن يخفقَ قلبُه بحبّ إخوانه وأخلائه، ويقبلَ عليهم بقلبه ومشاعره، فإذا هو عنصرُ خير ووئام وبناء في دنياه، والفائزُ برضوان ربه ومحبّته في أخراه.

لا يُقَاطِعُ إخْوَانَهُ وَلا يَهْجُرُهُمْ:

والمسلم الحق الواعي أحكامَ دينه يعلم أن الإسلام الذي دعا إلى المحبة والتواصل والتعاطف، هو هو الذي حرّم التباغض والقطيعة والهجر، وبيّن أن المتحابَّيْنِ الصادقَيْنِ لا تفرّق بينهما الهَنَواتُ العارضات؛ ذلك أن عروة الحبّ في الله أوثق من أن تنفصم من أول ذنب يقترفه أحدُهما، فقد قال الرسول ﷺ: «ما توادَّ اثْنان في اللَّهِ جَلَّ وعَزَّ، أَوْ في الإسلامِ، فَيُفَرِّقُ بَيْنَهُما أوّلُ ذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُما»(٢).

على أن الإسلام لم يُغْفِلْ طبيعةَ النفس البشرية، وأنها عرضة لِنزَوات الغضب وتقلبات العاطفة في لحظات الضعف، فوضع حدّاً للمدة التي يمكن أن تُفْثَأَ فيها نارُ الغضب، وَيَخْمُدَ أُوارُ الانفعال، وحرّم على المسلمَيْنِ المتنازِعَيْنِ أن تمضي هذه المدة، ولا يسارع أحدهما أو كلاهما للصلح والتصافي والوئام، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ:

«لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخاهُ فَوْقَ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ، يَلْتَقِيَانِ، فَيُعْرِضُ هذا، ويُعْرِضُ هذا، وخَيْرُهُما الّذي يَبْدَأُ بالسَّلامِ»(٣).

---

(١) رواه مسلم.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

(٣) متفق عليه.

والمسلم الصادق المرهَف الذي يتأمل هذا النصّ الثابت، لا يصبر على هجرة أخيه ومخاصمته مهما تكن الأسباب، بل يسارع إلى مصافاته والتسليم عليه، لأن خيرهما الذي يبدأ بالسلام، فإن ردّ عليه السّلامَ اشترك الاثنانِ في أجرِ المُصالَحةِ، وإن لم يردّ عليه، فقد برىء المسلِّمُ من إثم القطيعة والهجر، وباء الممتنعُ عن ردّ السلام وحدَه بالإثم، وهذا ما يوضحه حديث أبي هريرة القائل: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول:

«لا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَهْجُرَ مُؤْمِناً فوقَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ، فإذا مَرَّتْ ثَلاثَةُ أَيَّامٍ فَلْيَلْقَهُ فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ، فإنْ ردَّ عليْهِ السَّلامَ فقد اشْتَرَكا في الأَجْرِ، وإنْ لَمْ يَرُدَّ عليْهِ فقَدْ بَرِىءَ المُسَلِّمُ مِنَ الهِجْرَة[1]»[2].

وكلما زادت مدة المصارمة والهجر زاد الإثمُ وكبُرت الخطيئة واشتد الوعيدُ للمُتَصارِمَيْنِ المُتَنازِعَيْنِ؛ فقد قال النبي ﷺ:

«مَنْ هَجَرَ أخاهُ سَنَةً فَهُوَ كسَفْكِ دَمِهِ»[3].

إن منهج الإسلام في تربية النفوس قائم على التحابب والتقارب والتآلف، ومن هنا لا تباغضَ ولا تحاسدَ ولا تدابرَ في حياة المسلم الصادق، وكيف يكون في حياته شيء من هذه الخلائق الوضيعة، وصوتُ النبوّة يسكُبُ في سمعه أروعَ منهج للأخلاق عرفته البشرية منذ أن كان إنسان على ظهر الأرض بقوله:

«لا تَقَاطَعُوا، ولا تَدابَرُوا ولا تَباغَضُوا، ولا تَحَاسَدُوا، وكُونوا إخْواناً كما أَمَرَكُمُ اللَّهُ»[4].

---

(١) أي من إثم الهجرة.
(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.
(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.
(٤) رواه مسلم.

وبقوله:

«إيّـاكُمْ والـظَّنَّ، فـإنَّ الـظَّنَّ أَكْـذَبُ الحَـدِيثِ، ولا تَحَسَّسُـوا[١]، ولا تَجَسَّسُوا، ولا تَنافَسُوا، ولا تَحاسَدوا، ولا تَباغَضُـوا، ولا تَدابَـرُوا، وكُونُـوا عِبادَ اللَّهِ إخْواناً»[٢].

وبقوله:

«لا تَحـاسَدُوا، ولا تَنـاجَشُوا[٣]، ولا تَبـاغَضُـوا، ولا تَـدابَـرُوا، ولا يَبِـعْ بَعْضُكُمْ على بَيْـعِ بَعْضٍ، وكُونُـوا عِبادَ اللَّهِ إخـواناً، المُسْلِمُ أَخـو المُسْلِمِ، لا يَـظلِمُهُ، ولا يَخْـذُلُه، ولا يَحْقِـرُهُ، التَّقْوى هٰهُنـا ــ ويُشيرُ إلى صَـدْرِهِ ثلاثَ مَـرَّاتٍ ــ بحَسْبِ امْرِىءٍ مِنَ الشَّـرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخـاهُ المُسْلِمَ، كُـلُّ المُسْلِمِ على المُسْلِمِ حَرامٌ، دَمُهُ ومالُهُ وعِرْضُهُ»[٤].

إن المسلم الذي يتأمل هذا الهَدْيَ النبويَّ العالي، الحاوي على مكارم الأخـلاق كلها من حب وتعـاطف وتآخ، لا يقيم على شحنـاء، إلّا إذا كان في قلبه مرض، وفي طبعه جَفْوة، وفي فطرته التواء.

ومن هنا جاء الوعيد شديداً لأولئك القُساة الغِـلاظ، الملتوين عن جـادة الإسلام الخلقية، المحجوبين عن بشاشته وسماحته، بإصـرارهم على الهجر، يهدّدهم في آخرتهم، فيحجُبُ عنهم رحمةَ الله ومغفرتَـه، ويغلّق دونهم أبواب الجنة، وذلك في قول الرسول ﷺ:

«تُفتَّحُ أَبْوابُ الجَنَّةِ يومَ الاثْنَينِ ويومَ الخميسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لا يُشْرِكُ باللَّهِ شَيْئاً، إلّا رَجُلاً كانتْ بَيْنَهُ وبينَ أَخيهِ شَحْناءُ، فيُقالُ: أَنْـظِرُوا هذَيْنِ حتّى

---

(١) أي لا تبحثوا عن عيوب ولا تَتَبَّعُوها.

(٢) متفق عليه.

(٣) التناجش: أن يزيد المرء في السلعة ولا رغبة له في شرائها بل ليغرّ غيره في شرائها.

(٤) رواه مسلم.

يَصْطَلِحا، أَنْظِروا هذَيْنِ حتى يَصْطَلِحا، أَنْظِروا هذَيْنِ حتى يَصْطَلِحا»[١].

وكان الصحابي الجليل أبو الدرداء يقول: «أَلا أُحَدِّثُكُمْ بما هُوَ خَيْرٌ لكمْ مِنَ الصَّدَقَةِ والصِّيَام؟ صَلاحُ ذات البَيْنِ. أَلا وإنّ البِغْضَةَ هِيَ الحالِقَةُ[٢]»[٣].

إنها لنظرة نافذة عميقة لروح هذا الدين القائم على التآخي والمحبة، من هذا الصحابي الجليل الذي كان موضع ثقة الرسول الكريم في حسن تفكيره ونفاذ بصيرته، إذ رأى التباغضَ يحبط العمل، ويُضيع الأجر، ويمحق الحسنات، ومن هنا كان صلاح ذات البين للمسلم المقاطع أخاه خيراً له من الصدقة والصيام، إذ أن بقاءه على القطيعة والهجر والتباغض يودي بما يجنيه من عباداته من حسنات.

ولقد أخذ الصحابي أبو الدرداء حديثه هذا من هَدْي الرسول ﷺ الذي رواه الترمذي عنه أيضاً: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بأفضلَ من دَرَجَةِ الصِّيامِ والصَّلاةِ والصَّدَقَةِ؟» قالوا: بَلَى، قَالَ: «صَلاَحُ ذاتِ الْبَيْنِ، فإنّ فَسَادَ ذاتِ البَيْنِ هي الحالِقَةُ». قال أبو عيسى: هذا حديث صحيح. ويُرْوَى عن النبي ﷺ أنه قال: «هي الحالِقَةُ، لا أقولُ تَحْلِقُ الشَّعْرَ، ولكنْ تَحْلِقُ الدِّينَ».

سَمْحٌ عَفُوٌّ عنهمْ:

والمسلم الحق إذا مسّه الغيظ من أخيه كظم غيظه، ثم هو لا يأنف أن يسارع إلى العفو عنه، والتغاضي عن زلّته، ولا يرى في صَفْحِه عن أَخيه ذُلاًّ يَحيقُ به، ولا عاراً يلبَسُه، بل يرى فيه إحساناً يقرّبه من الله زُلْفَى، ويكسبه محبته التي خصّ بها المحسنين من عباده في قوله:

---

(١) رواه مسلم.

(٢) أي الماحية للثواب.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[١].

إن الإنسان قد يكظِم غيظه، ولكن مراجل الحقد والضغينة تفور في صدره، فيتحوّل غيظُه الفائر إلى إحْنَة متأججة، ويستحيل غضبُه الظاهرُ إلى حقد دفين. والغضب والغيظ أطهرُ وأنظف من الحقد والضغينة.

أما المسلم الحق الذي أُشْرِبَتْ نفسُه هَدْيَ هذا الدين فلا يحقد ولا يضطغن، إنه إن كظم غيظه، أتبع ذلك بالصفح والعفو، وكان من المحسنين.

إن الغيظ وِقْرٌ ثقيل على النفس حين تكظِمه، وشُواظٌ يلفح القلب ودخان. أما حين تَصفح النفس، ويعفو القلب، فهو الانطلاق من ذلك الوِقْر والرفرفةُ في آفاق النور، والبردُ على القلب، والسلامُ في الضمير، وهذا هو الشعور بالإحسان، يحسّه المسلم، وهو يصفح ويعفو عن أخيه.

والمسلم الحق في إقباله على أخيه صفوحاً عفوّاً، إنما يتواضع لأخيه ويعفو عنه للَّهِ، مبتغياً من لدنه العزةَ والرفعةَ التي ألمع إليهما رسول الله ﷺ في قوله:

«ما زادَ اللَّهُ عَبداً بعفو إلاّ عِزًّا، وما تَواضَعَ أَحَدٌ لله إلاّ رَفَعَهُ اللَّهُ»[٢].

وإنهما لَعِزَّةٌ ورفعةٌ من الله، يجتمعان إلى الإحسان الذي اتصف به المسلم السمح العفو الصفوح، فإذا هو من المحسنين الذي أحبهم الله، ومن الأعزّة الأماثل الذين يحبّهم الناس.

إن الحقد لا مكانَ له في قلب المسلم المرهف الحسّ، الواعي توجيهات دينه، المتأثّر بلمَساتها في أعماق وجدانه؛ ذلك أنه يدرك قيمة

---

(١) آل عمران: ١٣٤.

(٢) رواه مسلم.

العفو وصفاء القلب في مغفرة الله له، كما بيّنها رسول الله ﷺ بقوله:

«ثَلاثٌ مَنْ لَمْ يَكُنَّ فيهِ غُفِرَ لهُ ما سِواهُ لمَنْ شاءَ: مَنْ مَاتَ لا يُشْرِكُ بالله شَيْئاً، ولمْ يَكُنْ ساحراً يَتَّبِعُ السَّحَرَةَ، ولمْ يَحْقِدْ على أخيه»(١).

يَلْقَاهُمْ بِوَجْهٍ طَلِيق:

وإنه لَحريٌّ بالمسلم بعد هذا كله أن يكون نقيَّ السريرة، صافيَ القلب، بَشَّ الوجه، طَلْقَ المحيّا، مفترَّ الأسارير، لا يلقى إخوانه إلاّ متهلّلاً مبتسماً كما أراد رسول الله ﷺ بقوله:

«لا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْروفِ شَيْئاً ولَوْ أنْ تَلْقَى أَخاكَ بوَجْهٍ طَليقٍ»(٢).

فبشاشة الوجه خليقة حسنة حضّ عليها الإسلام، وجعلها من الأعمال الصالحات التي تكسب صاحبها المثوبة والأجر؛ لأن الوجه الطليقَ الصافي مرآة القلب النظيف الصافي، وهذا الصفاء في المظهر والمخبر من خلائق الإسلام الجليّة في المسلمين الصادقين.

ومن هنا كان من هَدْي الرسول الكريم:

«تَبَسُّمُكَ في وجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ»(٣).

وكان الرسول ﷺ يَبشُّ دوماً في وجوه أصحابه، فما يكاد يقع بصره على أحد منهم إلاَّ تبسّم له، يشهد لذلك الحديث الذي رواه الشيخان عن الصحابي الجليل جرير بن عبد الله البَجَلِيّ: «ما حَجَبَني رسولُ الله ﷺ منذُ أسلمتُ، ولا رآني إلاَّ تبسَّمَ».

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه الترمذي، وقال: حسن غريب.

وكان من حديث عليّ رضي الله عنه:

«إذا اجتمَعَ المُسْلِمَانِ فتَذَاكَرا غَفَرَ اللَّهُ لأَبَشِّهِما وَجهاً».

ولذلك كان من عادة الصحابة الكرام الذي كان هَدْيُ الرسول ﷺ في نفوسهم حيًّا طريًّا أن يتصافحوا إذا تلاقَوْا وإذا قدموا من سفر تعانقوا، وفي ذلك إشاعة للمحبة الودّ بين الإخوة المتلاقين. ويروي ابن سعد في طبقاته[1] عن الشعبي قال: لما رجع رسول الله ﷺ من خَيْبَر تلقّاه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، فالتزمه رسول الله ﷺ، وقبّل ما بين عينيه، وقال: ما أَدْري بأيِّهما أنا أفرحُ، بِقُدومِ جعْفَرٍ أوْ بفَتْحِ خَيْبَر. وزاد في رواية أخرى: وضمّه إليه واعتنقه.

لقد حبّب الإسلام إفشاءَ السّلام، والمصافحةَ والمعانقةَ، عند تلاقي الإخوة، لتبقى أسبابُ الودّ بين القلوب معقودةَ الأواصر، ولتزداد وشائج الأخوّة بين المؤمنين صلابة وقوة، وبذلك يستطيع المجتمع المسلم أن يعيش إسلامَه، وينهضَ بتكاليف رسالته في الحياة.

يَنْصَحُ لَهُمْ:

والمسلم الصادق ناصِحٌ لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم أن النبي ﷺ قال:

«الدِّينُ النَّصيحَةُ» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قالَ: «لله ولِكتابِهِ ولِرَسولِه ولأَئِمَّةِ المُسْلِمينَ وعامَّتِهِمْ»، فلا عجب أن يكون ناصحاً لإخوانه، لا يخدعهم ولا يغشهم.

والنصيحة في حسّ المسلم المرهف من أمهات قواعد الإسلام التي كان المؤمنون الأوّلون يبايعون رسول الله عليها، يؤكد ذلك قولُ جرير بن

---

(١) ٤/٣٤.

عبد الله رضي الله عنه: «بايَعْتُ رسول الله ﷺ على إقامِ الصّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، والنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ»[١].

ولقد رأينا في الحديث السابق أن الرسول الكريم عرّف الدين بكلمة واحدة هي «النصيحة»، دلالة على أن النصيحة مرتكزُ الدين الأصيل، وأساسُه الراسخ، إذ بدونها لا يصحّ إيمان المرء، ولا يحسُنُ إسلامه، وهذا مصداق قول الرسول الكريم:

«لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حتّى يُحِبَّ لأَخيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِه»[٢]. ولا يمكن أن يحب له ما يحب لنفسه إلاّ إذا كان له محبًّا نَصوحاً.

لا جرم أنه مرتقىً صعبٌ عسيرُ المنال أن يحب الإنسان لأخيه ما يحب لنفسه، ولكنه ليس بالمستحيل إذا استقرّ في حسّ هذا الإنسان أن حبه لأخيه ما يحب لنفسه شرط من شروط الإيمان، وأن الدين النصيحة، بل إنه ليغدو شيئاً طبيعيًّا في تصرفات المسلم الحق الصادق الذي خالطت قلبَه بشاشةُ الإسلام، وتاريخنا في القديم والحديث مليء بالشواهد على حب المسلمين الصادقين لإخوانهم ما يحبون لأنفسهم. ويحضرني في هذا المقام ما يتناقله شيوخ الجيل السابق من الأحياء عن التجار في بلاد الشام، مِمَّن تجمعهم سوق واحدة، كسوق العطّارين، وسوق الصّبّاغين، وسوق الخيّاطين، وغيرُها من الأسواق المسقوفة القديمة، كان أحدهم إذا سبق إليه مشترٍ، فاشترى منه بضاعة، ثم جاءه مشترٍ ثانٍ، وكان جاره لم يستفتح نهارَه ببيع بعد، قال له بلطف: اذهب واشترِ ما يلزمك من جاري، فإني قد بعت، وهو لم يبعْ بعدُ.

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

يا لَلَّهِ! كم تبدو الحياةُ بهيجةً شائقةً ممتعةً في ظلال هذا الإخاء وهذا التعاطف! وكم يبدو الأحياء سعداءَ حين تسري فيهم روح الإسلام، وتسودُ في معاملاتهم قِيَمُهُ! إنهم حينئذ يعيشون في سموّ ما وصل إليه الإنسان إلاّ حين استظلّ بهذا الدين الذي علّمه أن «الدين: النصيحة»، وأنه لا يؤمن حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

من هذا المنطلق السامي الرفيع من المحبة والنصيحة، كان الصحابي الجليلُ أبو هريرة رضي الله عنه يقول:

«المُؤْمِنُ مِرْآةُ أَخِيهِ، إذا رأى فيهِ عَيْباً أَصْلَحَهُ»[١].

وأبو هريرة في حديثه هذا يقتبس من هَدْي الرسول الكريم القائل:

«المُؤْمِنُ مِرْآةُ أَخِيهِ، والمُؤْمِن أَخو المُؤْمِنِ، يَكُفُّ علَيْهِ ضَيْعَتَهُ[٢] ويَحوطُهُ مِنْ ورائِهِ»[٣].

إنها طبيعة الأشياء أن يقف المسلم الحق الصادق من أخيه المسلم هذا الموقف السامي النبيل، ولو أراد أن يقف منه غير هذا الموقف لما استطاع، إذ ما كان لمن يعيش في ذلك الأفقِ العالي الوضيء أن يهبط في مواقفه إلى مستوى الفردية والأنانية والمنفعة الخاصة؛ فكل إناء بالذي فيه ينضح، والزهر لا ينفح إلاّ الشَّذَا، والأرض الطّيبة لا تُخْرِج إلاّ النبات الطيب، وللَّهِ دَرُّ الشاعر[٤] إذ يقول:

وهَـلْ يُنْبِـتُ الخَطِّـيَّ إلاّ وَشِيجُـهُ ... وتُغْـرَسُ إلاَّ فـي مَنَـابِتِهـا النَّخْـلُ

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

(٢) أي يمنع ضياعه وهلاكه ويتكفّله.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

(٤) هو زهير بن أبـي سُلْمَى.

مَطْبوعٌ عَلَى البِرِّ وَالوَفَاءِ:

إن الإسلام ليطبع أبناءه على الوفاء وبرّ الأصدقاء، حتى يشمل بذلكَ أصدقاء الوالد، كما تقدم في كلامنا على «المسلم مع والديه»، وذلك تقديراً منه لفضيلة الوفاء، وإعظاماً لعروة الأخوّة والصداقة، وكتب التراث تَفيض بنماذج رائعة من البرّ والوفاء، تمثّلَها السلف في حياتهم، فكانوا في أخلاقهم بحق خيرَ أمة أخرجت للناس.

من هذا ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«إنَّ أَبَرَّ البرِّ أن يَصلَ الرّجُلُ وُدَّ أَبيهِ».

وعن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رجلاً من الأعراب لقيه بطريق مكة، فسلّم عليه عبدُ الله بنُ عمر، وحمله على حمار كان يركبه، وأعطاه عمامة كانت على رأسه. قال ابن دينار: فقلنا له: أصلحك الله، إنهم الأعراب، وهم يرضَوْنَ باليسير، فقال عبد الله بن عمر: إن أبا هذا كان وُدًّا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إنّ أَبَرَّ البِرِّ صِلَةُ الرَّجُلِ أَهْلَ وُدِّ أَبيهِ»[1].

لقد كان رسول الله ﷺ يتعهد قلوب المسلمين فيغرس فيها غَرَسات الوفاء، كلما وجد مناسبة يُسْمِعُهُم فيها شيئاً من هَدْيه وتوجيهه، فقد جاءه رجل من بني سَلَمة فقال: يا رسول الله هل بقي من برّ أَبَوَيَّ شيءٌ أبَرّهما به بعد موتهما؟ فقال: «نَعَمْ، الصَّلاةُ علَيهِما[2]، والاستِغفارُ لهما، وإنْفاذُ

---

(١) رواه مسلم.

(٢) أي الدعاء لهما.

عَهْدِهما مِنْ بَعْدِهما، وصِلَةُ الرَّحِمِ التي لا تُوصَلُ إلاّ بهما، وإكرامُ صَدِيقهما»[١].

وكان حرص الرسول الكريم على هذا الوفاء للصداقة مما يَغيظُ أمَّ المؤمنين السيدةَ عائشةَ رضي الله عنها، إذ كان يشمل برَّ أصدقاء خديجة، فتغارُ منها. وهذا ما حدثت به السيدةُ عائشةُ، فقالت: «ما غِرْتُ على أحد من نساء النبي ﷺ ما غِرْتُ على خديجة رضي الله عنها، وما رأيتُها قَطُّ، ولكنْ كانَ يُكْثِرُ ذكرَها، وربما ذَبَحَ الشّاةَ، ثم يُقَطِّعُها أَعْضاءً، ثم يبعثُها في صَدائِقِ خديجة، فربّما قلتُ له: كأنْ لم يكنْ في الدنيا امرأةٌ إلاّ خديجةَ! فيقولُ: «إنّها كانَتْ وكانَتْ، وكانَ لي مِنْها وَلَدٌ»[٢].

وفي رواية: «وإنْ كان لَيَذْبَحُ الشّاةَ، فَيُهْدي في خَلائِلِهَا مِنْها ما يَسَعُهُنَّ».

إنه الوفاء الإسلامي الذي ما بعده وفاء، يمتد فيشمل ببرّه ونداه الأصدقاء الأبعدين للآباء والزوجات الأموات، فكيف بالأصدقاء الأقربين لنا نحن معشرَ الأحياء؟!

ومن مقتضيات المحبة والنصحية والبرّ والوفاء في شِرْعة الإسلام أن ينصر الرجل أخاه في جميع الأحوال، ينصره إن كان على الحق، فيقف بجانبه، يؤازره ويذود عنه، وينصره إن كان على غير الحق، فينهاه، وينصحه، ويزجره على الارتكاس في حمأة الباطل، والتردّي في مستنقعات الظلم. وهذا ما دعا إليه الرسول الكريم في قوله:

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان في صحيحه.

(٢) متفق عليه.

«لِيَنْصُرِ الرَّجُلُ أَخاهُ ظالِماً أَوْ مَظْلوماً؛ إنْ كانَ ظالِماً فَلْيَنْهَهُ، فإنّهُ لهُ نَصْرٌ، وإنْ كانَ مَظْلُوماً فَلْيَنْصُرْهُ»[١].

إن المسلم الحق لا يتخلّى عن أخيه ظالماً كان أو مظلوماً؛ ذلك أن الإسلام علّمه أن يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه، وما دام لا يحبّ لنفسه أن يكون ظالماً أو مظلوماً، فهو لا يحب ذلك لأخيه أيضاً، ولذلك فهو يقف إلى جانبه إن كان مظلوماً فينصُرُه ويدفع عنه، ويقفُ إلى جانبه يكفُّه عن الظلم إن كان ظالماً، ولعمري إن هذه هي النصيحة الخالصة، وإن هذا هو البِرّ الصادق، وإنهما لخليقتان يتصف بهما المسلم الحق البَرُّ الوفيّ الذي صاغه الإسلام، أيّان عاش، وحيثما كان.

رَفِيقٌ بإخْوانِه:

والمسلم الحق المتمثّل أحكامَ دينِه وقِيَمَهُ لطيفُ المعشر مع إخوانه، رفيقٌ بهم، آلِفٌ لهم، مألوفٌ لديهم، وهو في ذلك كله يستقي من توجيهات الإسلام التي تحضّ على مكارم الأخلاق.

فالله تبارك وتعالى يصف المؤمنين بقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٢]. وفي ذلك من اللّين والتواضع وحسن التعامل مع الأخوة المؤمنين ما يصل إلى درجة متناهية في اللطف، هي أشبه بالذِّلّة.

ويأتي بعد ذلك التوجيهُ النبويُّ العالي في تحبيب الرفق إلى المسلم تحبيباً يجعله زينة كلِّ شيء في الحياة، وذلك في قول الرسول الكريم.

«إنَّ الرِّفْقَ لا يكونُ في شَيْءٍ إلاّ زانَهُ، ولا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إلاّ شانَهُ[٣].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) المائدة: ٥٤.

(٣) رواه مسلم.

وتتجلّى لعين المسلم شخصية الرسول الكريم في سيرته، فإذا هي كلها رفقٌ ودَماثة وكرم وخلق، لم يُعرَف عنه يوماً أنه أفحش في لفظ، ولا لعن أو سَبَّ مسلماً، وها هوذا أنس رضي الله عنه خادمُه ومُلازِمُه يصف خُلُقَه العظيمَ، فيقول:

«لَمْ يَكُنْ رسولُ الله ﷺ فاحِشاً ولا لَعّاناً ولا سَبّاباً، كان يقولُ عِنْدَ المَعْتَبَةِ: ما لَهُ تَرِبَ جَبِينُهُ[1]؟»[2].

لا يَغْتَابُهُمْ:

والمسلم الحق الصادق يحفظ غَيْبَةَ إخوانه وأصدقائه، فلا يغتابُهم؛ لأنه يعلم أن الغِيبَة حرامٌ بنصّ القرآن الكريم:

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾[3].

إن نفس المسلم المرهَفَةَ المتأدِّبةَ بأدب الإسلام، المرتشفةَ من رحيق أخلاقه، لتَقشعِرُّ من هذه الصورة التي رسمها القرآن الكريم للمغتاب، يأكل لحم أخيه مَيْتاً، بكلمات يتفوّه بها عنه في غيابه، فإذا هو يسارع إلى التقوى التي ذيّل الله بها آية الغِيبة، ويلوذ بالتوبة النصوح منها إن تورّط فيها، ويُمْسِكُ عليه لسانَه، فلا يطلقه على إخوانه إلّا بخير، ذاكراً قولَ الرسول الكريم:

«أَتَدْرُونَ ما الغِيبَةُ؟ قالوا: اللَّهُ ورسولُه أَعْلَمُ، قالَ: ذِكْرُكَ أخاكَ بما يَكْرَهُ، قيلَ: أفرأيتَ إنْ كانَ في أخي ما أقولُ؟ قالَ: إنْ كان فيهِ ما تَقولُ فَقَدِ

---

(١) قيل في تفسير هذه العبارة: أراد النبي ﷺ بها دعاء له بكثرة السجود، ففي ذلك هداية له وإصلاح.

(٢) رواه البخاري.

(٣) الحجرات: ١٢.

اغْتَبْتَهُ، وإنْ لَمْ يكُنْ فيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ»[١].

إن المسلم التقيّ يجتنب الغِيبة الظاهرةَ والخفيّةَ، حِرْصاً منه على ألا يكونَ آكلاً لحم أخيه بحال، وتنزيهاً للسانه أن يكبّه في النار، كما جاء في تحذير النبي ﷺ لمعاذ حينَ أخَذَ بلسانه وقال: «كُفَّ عليكَ هذا»، فقال مُعاذ: يا نبيَّ الله، وإنا لَمُؤاخَذُونَ بما نَتكلَّمُ بهِ؟ فقال النبي ﷺ «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، وهَلْ يَكُبُّ النّاسَ في النّارِ على وُجوهِهِمْ، أو قال: على مَناخِرِهِمْ، إلاّ حَصائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟»[٢].

إن الغِيبَة خلق ذميم، لا يتصف به الرجال، وإنما يتصف به أشباه الرجال الجبناء من ذوي الوجهَيْن الذين يغتابون إخوانهم وأصدقاءهم أمام الناس، فإذا لقوهم هَشُّوا لهم وبَشُّوا وتظاهروا بالصداقة والودّ، ومن هنا كان المسلم الحق أبعدَ الناس عن الغيبة والتلوّن بلونين، لأنّ الإسلام علّمه الرجولة، ولقّنه الاستقامة، وحبَّبَ إليه التقوى في القول والعمل، وكرّه إليه النفاقَ والتلوّنَ والتذبذب، بل نفّره من هذه الخصال تنفيراً، حين جعل ذا الوجهَيْن من شرار الناس عند الله، وذلك في قول الرسول ﷺ:

«تَجِدُ مِنْ شِرارِ النّاسِ يَوْمَ القِيامَةِ عِنْدَ اللّهِ ذا الْوَجْهَيْنِ، الذي يَأْتي هؤُلاءِ بِوَجْهٍ، وهؤُلاءِ بِوَجْهٍ»[٣].

إن للمسلم الحق وجهاً واحداً، لا وجهَيْنِ، وإنه لَوجْهٌ أغرُّ أبلجُ مشرقٌ واضحٌ، لا يلقى به قوماً دون قوم، بل يلقى به الناسَ جميعاً، لأنه يعلم أن اتخاذ الوجهين هو النفاق بعينه، والإسلام والنفاق لا يجتمعان، وأن ذا الوجهين منافق، والمنافقون في الدَّرْك الأسفل من النار.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) حديث حسن صحيح، رواه ابن ماجه.

(٣) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

يَجْتَنِبُ مَعَهُمُ الجَدَلَ والمُزاحَ المؤذِيَ والإخلافَ بِالوَعْدِ:

ومن خلائق المسلم الحق أنه لا يعنت إخوانه وأصدقاءه بالجدل العقيم، ولا يثقل عليهم بالمُزاح المؤذي، ولا يُخْلِفُهم موعداً وعَدَهمْ إياه، مستهدياً في ذلك كلّه بهَدْي الرسول الكريم القائل:

«لا تُمارِ أخاكَ[١]، ولا تُمازِحْهُ[٢]، ولا تَعِدْهُ مَوْعِداً فَتُخْلِفْهُ»[٣].

ذلك أن المِراءَ لا يأتي بخير، والمُزاحُ المؤذي كثيراً ما يؤول إلى النفور والكراهية وسقوطِ المهابة، والإخلافُ بالوعد يكدّر النفس وينزع المحبة من القلب. والمسلم الصادق بعيدٌ عن هذا كله.

كَرِيمٌ يُؤْثِرُ إخوانَه على نَفْسِهِ:

والمسلم الحق كريم جواد، يدُه مبسوطة سَخاءُ على إخوانه وأصدقائه، وبَدَهِيٌّ أن إخوانه وأصدقاءه كافةً من المؤمنين الأتقياء، كما قال رسول الله ﷺ:

«لا تُصاحِبْ إلاّ مُؤْمِناً، ولا يَأْكُلْ طَعامَكَ إلاّ تَقِيٌّ»[٤].

ومن هنا كان المسلم الواعي بصيراً بمواطن الكرم ومناسباته ودواعيه؛ فهو لا يغدق أمواله بسخاء، ولا يحتفي إلاّ بإخوانه وأصدقائه المؤمنين الأتقياء، ولا يرضى أن يكون بقرةً حَلوباً لِسِفْلة القوم من الملحدين الطَّغام اتقاء شرِّهم، أو تألّفاً لهم إن كانوا من أصحاب النفوذ، الذين لا يتورعون عن استغلال بعض المتديّنين السّذَّج الأجواد، فتراهم مصطفّين على موائدهم

---

(١) أي لا تجادله مخاصماً.

(٢) أي لا تفرط في المزاح.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

(٤) رواه أبو داود والترمذي بإسناد حسن.

السخيّة، وإنهم ليضحكون في قرارة نفوسهم من ذلك الكرم الساذج الذي وضعه صاحبه في غير محلّه.

إن المسلم الواعي كريم، وكرمُه في محلّه؛ ذلك أن الكرم خلق إسلامي أصيل، يجمّل صاحبه، ويسمو به، ويحبّب الناس فيه، ويُدْنيهم منه. وقد كان هذا الخلق العظيم متأصّلاً في نفوس الصحابة رضوانُ الله عليهم، وكان الاتّصافُ به من أحب الأعمال الصالحة إليهم، يصور ذلك قول علي رضي الله عنه:

لَأَنْ أَجْمعَ نفراً مِنْ إخْواني على صاعٍ أو صاعَيْنِ مِنْ طَعَامٍ، أَحَبُّ إليَّ مِنْ أنْ أَخْرُجَ إلى سوقِكُمْ فأُعْتِقَ رَقَبَةً»[1].

ذلك أن مثل هذه اللقاءات الودّية على الطعام، توطّد أواصر المحبة بين الإخوان الأصدقاء، وتقوّي روحَ التعاطف فيهم، وتشيع في حياتهم ندى العاطفة الإنسانية الذي افتقده إنسان الحضارة الماديّة الحديثة، بعد أن أصبح لا يهتم إلاّ بنفسه ومصلحته، فإذا هو يعاني خَواءً روحياً وجَفافاً عاطفياً، نتج عنهما شعور عميق بالحرمان من الصداقة والأصدقاء المخلصين. وما حفاوتهُ باقتناء الكلاب، وإقبالُه على تدليلها والعناية بها، إلاّ تعويضٌ عما فقد من ريّ العاطفة الإنسانية الذي جفّفته في نفسه الفلسفةُ المادية التي اتخذها ديناً له، وإطاراً يتحرك ضمنه في متقلّبه ومَثْواه؛ فقد جاء في تقرير فرنسي أن هناك سبعةَ ملايين من الكلاب في فرنسا التي يبلغ عددُ سكانها اثنين وخمسين مليونَ نسمة، وتعيش هذه الكلاب مع أصحابها كأنها من أقاربهم. ولم يعد غريباً في مطاعم باريس أن تشاهد الكلبَ وصاحبَه يتناولان طعامهما على مائدة واحدة. وحين سئل مسؤول في جمعية رعاية الحيوان بباريس: «لماذا

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

يعامل الفرنسيون كلابَهم مثلَ ما يعاملون به أنفسهم» أجاب: «لأنهم يريدون أن يحبّوا، ولكنهم لا يعثرون بين الناس على مَنْ يحبّونه»[١].

إن الإنسان الماديّ في الغرب أو في الشرق لم يعد يجدُ الإنسان الصديقَ الوفيّ الوَدود في مجتمعه، ليمنحه حبه وعاطفته، فاتجه إلى هذه الحيوانات التي وجد فيها من الألفة والوفاء أكثرَ مما وجد في الناس الذين حوله. فهل بعد هذا من ارتكاس عاطفي يهوي بالإنسان، .فيجعلهُ أليفَ الحيوان، بعد فقده إشراقةَ الهدى ونعمةَ الإيمان؟

ولقد كان هذا الارتكاسُ العاطفي الذي مُنِيَ به إنسان الغرب، فجفّف ينابيعَ الشعور الإنساني في نفسه، أولَ ما لفت أنظار أدباء المهجر من مسلمين وغير مسلمين؛ ذلك أنهم نظروا إلى الحياة الغربية الماديّة التي جرفت الإنسان في مجتمعات الغرب، فجعلته كالآلة، لا يعرف من الحياة إلاّ الكدَّ والإنتاجَ والتسابقَ العنيفَ على الكسب، لا يَهِشُّ قلبُهُ لصديق، ولا يفترُّ ثغرُه عن ابتسامة حب لرفيق، وإنما هو ذاهل مأخوذ بالسرعة والآلة والازدحام، فهالهم ذلك كلُّه، وهم الذين نشأوا في ديار الإسلام، وتنفّسوا في أجواء روحانيته السمحة، وأُتْرِعَتْ نفوسُهم بحب الإنسان لأخيه الإنسان، فانطلقوا يدعون الغربيين بحرارة إلى الحب والتآخي والتعارف. فهذا نسيب عريضة يحمل لواء هذه الدعوة الإنسانية، فينادي الإنسانَ الغربيَّ الذي رانَتْ على قلبه المادة، وأعشَتْ بصرَه أضواءُ الحضارة، وأصَمَّ أذنيه ضجيجُ الآلة، قائلاً له:

يابنَ وُدّي، يا صاحبي يا رَفيقي ... ليسَ حُبّي تَطَفُّلاً أو ثَقالَةْ

---

(١) من مقال للأستاذ وحيد الدين خان بعنوان (وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية في كل زمان ومكان)، نشره في مجلة المجتمع الكويتية، العدد ٣٢٥، في ٢٤ ذو القعدة ١٣٩٦هـ = ١٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٦م.

فـأجِبْنِـي «بيـا أخـي» يـا صَـديقـي وأعِــذْ، إنَّهــا ألَــذُّ مَقــالَــةْ
وإذا شئـتَ أنْ تسيــرَ وحيــداً وإذا مـا اعْتَـرَتْـكَ مِنّـي مَـلالَـةْ
فـامْـضِ، لكنّمـا سَتَسْمَـعُ صَـوْتـي صارِخاً: «يا أخي» يُؤَدّي الرِّسالَةْ
وسَيَأْتِيكَ أينَ كنتَ صَدَى حُبّـي فَتَـذْري جَمَـالَـهُ وجـلالَـهْ

وتشتد في تلك الديار وطأة الحياة الماديّة على يوسف أسعد غانم، فيسأمُ هذه الحياة المثقلةَ بالأعباء، الغارقةَ في لجّة التيار المادي الجاف العنيف، لا تَرِفُّ عليها نسمةٌ نديّة من روحانية أو تآخٍ أو تعاطف، فتتفجّر في نفسه ينابيع الشوق والحنين إلى الأرض العربية في ديار الإسلام، حيث مهبطُ النبوات، ومصدرُ الروحانيات، وموطنُ الحب والتآخي والصفاء، وإذا هو يتمنى أن يعيش في خيمة عربية، ويتركَ دنيا الحضارة وما فيها من صخب وضجيج وأضواء، فيقول:

«ولو تبخّر عُمُري كلُّه قصيراً في أي صعيد عربـي، لَحَمِدْتُ اللّٰهَ على حياة قصيرة عريضة في دنيا يقيمُ اللّٰهُ في قلوب أبنائها... لقد تعبتُ في الغرب حتى ملّني التعب، خذوا السيارةَ والطيارةَ، وأعطوني جملاً وحصاناً، خذوا الدنيا الغربية، أرضاً وبحراً وسماءً، وأعطوني خيمةً عربية أنصبها على إحدى روابـي وطني لبنان، على ضفاف بردى، على شواطىء الرافدين، في أرباض عَمّان، في الصحراء السعودية، في مجاهل اليمن، في سفح الأهرام، في واحات ليبيا، أعطوني خيمة عربية لأضعها في كِفّة، وأضع الدنيا في كِفّة، وأنا الرابح....».

والنصوص التي تعزف هذه النغمة كثيرة جدًّا في أدب المهجر، أكتفي منها بهذين النَّصّيْنِ، وكُلُّها تصوّر ظمأ المهاجرين إلى الرِّيّ العاطفيّ الذي افتقدوه في عالم الغرب المادي، ففجّر فقدُه في نفوسهم ينابيع الشوق والحنين

إلى الشرق الذي أشاع الإسلامُ فيه المحبّةَ والأخوّةَ والتعاطفَ والتكافلَ . . .

وكما حبّب الإسلامُ في لقاءات الإخوة، ونَدَبهمْ إلى التنافس في الكرم والبذل والسخاء فيما يُوثِّق عروة الأخوّة بينهم، حتى أصبح الجودُ والإنفاقُ على الإخوة خُلُقاً أصيلاً فيهم، جعل قَبولَ دعوةِ الأخ المسلم من أخيه واجباً عليه، لا ينبغي التقصيرُ فيه. وكان الصحابة رضوان الله عليهم يلبّون داعي الأخوّة، ويجيبون أخاهم إذا دعاهم، بل يرون إجابته حقًّا له واجباً عليهم، يأثمون إن هم قصّروا في أدائه، يشهد لذلك الحديث الذي أخرجه الإمام البخاري في الأدب المفرد عن زياد بن أنعم الإفريقي، قال: «كُنَّا غُزاةً في البحر زمنَ مُعاويةَ رضي الله عنه، فانضمّ مركبُنا إلى مركب أبـي أيوبَ الأنصاري رضي الله عنه، فلما حضر غداؤنا أرسلنا إليه، فأتانا، فقال: دعوتموني وأنا صائم، فلم يكن لي بد من أن أجيبكم، لأني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ لِلْمُسْلِمِ على أخيه سِتَّ خِصالٍ واجبةٍ، إنْ تَرَكَ مِنْها شَيْئاً فقَدْ تَرَكَ حَقًّا واجباً لأخيه علَيْهِ: يُسَلِّمُ عليه إذا لَقِيَهُ، ويُجيبُه إذا دَعاهُ، ويُشَمِّتُهُ إذا عَطَسَ، ويَعودُهُ إذا مَرِضَ، ويحضُرُهُ إذا ماتَ، وينصحُهُ إذا اسْتَنْصَحَهُ».

بل إنهم ليرون في إباء المسلم دعوةَ أخيه من غير عذر معصيةً لله ولرسوله، نصَّ على ذلك رسول الله ﷺ بقوله:

«شَرُّ الطَّعامِ طَعامُ الوَليمةِ، يُمْنَعُها مَنْ يأتيها، ويُدْعَى إلَيْها مَنْ يَأْباها، ومَنْ لمْ يُجِبِ الدَّعْوَةَ فقَدْ عَصَى اللّـهَ ورسولَهُ»(١).

إن أخوّة الإيمان ليست شعاراتٍ تُرفَع، ولا تبجّحاً يُقْصَدُ به الإعلانُ والدعاية، وإنما هي رابطة مقدّسة لها التزاماتُها وتكاليفُها وحقوقُها، يعرفُ هذا

(١) رواه مسلم.

openkanz.com

مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر حقّ الإيمان، وتمثّل حقائق الإسلام حقّ التمثّل، وإننا لنجد أثر هذا الإيمان وثمرة هذا التمثّلِ في صنيع الأنصار الذين ضربوا المثلَ الأعلى في الحب والإيثار لإخوانهم المهاجرين حين قدموا عليهم مهاجرين بدينهم، لا يملكون شيئاً، فقدم لهم الأنصارُ كل شيء، حتى كان أحدهم يقول لأخيه: هذا مالي فخُذ شطرَه، وهاتان زوجتاي، فانظر أعجبَهما إليك فسَمِّها لي أطلّقْها لتكون زوجة لك بعد انقضاء عدّتها، وكان الأخ المهاجر يقابل عاطفة أخيه الأنصاري بأحسنَ منها، فيقول له: بارك الله لك في مالك وأهلك، ما لشيء من هذا في نفسي حاجة، ولكن دلّوني على السوق لأعمل.

وكان الأنصاري يستضيف أخاه من المهاجرين، وليس في بيته من الزاد إلاّ قوتُ صبيانه، فيُؤْثرُه على نفسه وعياله، قائلاً لزوجه: نوّمي صبيانَكِ، وأطفئي السِّراج، وقدّمي ما عندَكِ للضيف، ونجلس معه إلى المائدة، نوهمُه أننا نأكل معه، ولا نأكل. ويَجلسون إلى المائدة، ويأكل الضيف وحده، ويبيت الزوجان طاويَيْنِ، ويغدو الأنصاري على النبي ﷺ، فيقول له: «لَقَدْ عَجِبَ اللَّهُ مِنْ صَنِيعِكُما بِضَيْفِكُما اللَّيْلَةَ»(١).

وبلغ من إيثار الأنصار للمهاجرين ومواساتِهم لهم بأموالهم أنهم قالوا للنبيّ ﷺ: اِقْسِمْ بينَنا وبينَ إخْوانِنا النّخِيلَ، قال: لا، فقالوا: تَكْفونا المؤونةَ(٢)، ونُشْرِكُكُمْ في الثَّمرةِ، قالوا: سَمِعْنا وأَطَعْنا»(٣).

وقد أكبر المهاجرون صَنيعَ إخوانهم من الأنصار، فقالوا للنبيّ ﷺ: «يا رسولَ اللَّهِ، ما رأَيْنا مِثلَ قومٍ قَدِمْنا عليهمْ أحسنَ مُواساةً في قَلِيلٍ، ولا أحسنَ

---

(١) متفق عليه.

(٢) أي تساعدوننا في زراعة البساتين.

(٣) رواه البخاري.

بَذْلاً مِنْ كثيرٍ، لَقَدْ كَفَوْنا المَؤُونَةَ، وأَشْرَكُونا في المَهْنَإِ[١]، حتّى لقدْ خَشِينا أن يَذْهَبُوا بالأَجْرِ كُلِّه. قالَ: لا، ما أَثْنَيْتُمْ عليهمْ، ودعَوْتُمُ الله لَهُمْ»[٢].

وحَسْبُ الأنصارِ ثناءُ الله عليهم، وتنويهُه بحسن صنيعهم، إذ أنزل فيهم قرآناً يُتْلَى، فيحكي قصة إيثارهم الفريد على وجه الزمان، ويخلّدهم نماذجَ واقعيّةً حيّةً رفيعةً للتحرّر من شحّ النفوس:

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾[٣].

وستبقى صورة الأنصار الوضيئةُ في القرآن الكريم منارَ هداية وإشعاع للإنسانية الضاربة في تيهِ المطامع والأَثَرة والشّحّ والإمساك، ما أقبلَ ليلٌ وأدْبَر نهارٌ، ودُعِيَ الناسُ للبذل والسخاء والإيثار.

لقد أدرك الأنصار رضوان الله عليهم ما تعنيه أخوّة الإيمان، حين آخى الرسول ﷺ بينهم وبين المهاجرين، فكانوا مؤمنين حقًّا، أحبّوا لإخوانهم ما أحبّوا لأنفسهم، كما سمعوا من رسول الله ﷺ، فلم يُمْسِكوا عنهم شيئاً من حطام الدنيا، بل نزلوا عن شطر ما يملكون لإخوانهم طائعين مختارين، طيّبةً بذلك نفوسُهم، راضيةً قلوبُهم، وكانو في أول الهجرة يورّثون المهاجرين دون أرحامهم، ليقوموا بحق الأخوّة التي رفع لواءها فيهم رسول الله ﷺ، يشهد لذلك الحديث الذي رواه البخاري عن ابن عباس، قال: «كانَ المُهاجِرونَ لمّا قَدِموا المدينةَ يرثُ المهاجريُّ الأَنْصاريَّ دونَ رَحِمِهِ للأُخوَّةِ

---

(١) أي الهنيء الذي يأتيك بلا مشقة.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي، وإسناده صحيح.

(٣) الحشر: ٩.

التي آخى النبيُّ ﷺ بينَهم، فلمَّا نزلَتْ: «وأُولُو الأَرْحامِ بَعْضُهمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ»، نُسِخَ الميراثُ وبقي النصر والإرفاد والإيثار والمواساة.

يَدْعُو لإِخْوَانِه بِظَهْرِ الغَيْبِ:

والمسلم الحق الصادق الذي يحب لأخيه ما يحب لنفسه، لا يفوته في ساعات الصفاء أن يدعوَ لأخيه بظهر الغيب، دعوةَ غائبٍ لغائب، تتجلّى فيها خفقةُ القلب المحبّ الصَّدوق، ورَفّةُ الروح الشفّافة الحانية؛ ففي دعائه له بالخير تأكيدٌ لمحبّته إيّاه، وتوثيقٌ لعروة الأخوّة النقيّة في قلبه، وإنه ليعلم أن هذه الدعوةَ الحارّةَ أسرعُ الدعوات إجابة، لما تميّزت به من إخلاص وصدق وصفاء، يؤكد ذلك قولُ الرسول الكريم:

«أَسْرَعُ الدُّعاءِ إجابَةً دُعاءُ غائِبٍ لِغائِبٍ»[١].

ولهذا طلب الرسول الكريم من عمر رضي الله عنه حين جاءه يستأذنه في العمرة أن يدعوَ له؛ فعن عمر رضي الله عنه قال: «اسْتَأْذَنْتُ النبيَّ ﷺ في العُمْرَة، فأذِنَ، وقال: «لا تَنْسَنا يا أُخَيَّ مِنْ دُعائِكَ»، فقال كلمةً ما يَسُرُّني أنّ لي بِها الدُّنْيا»[٢].

وقد وَقَرَ هذا المعنى في نفوس الصحابة الكرام، فكانوا يطلبون الدعاء من إخوانهم كلّما وقفوا موقفاً يُسْتَجاب فيه الدعاء، يستوي في ذلك الرجال والنساء، مما يدلّ على ارتفاع مستوى المجتمع كله في تلك الفترة الوضيئة من تاريخنا؛ فقد أخرج البخاري في الأدب المفرد عن صفوانَ بن عبدِ الله بن صفوان، وكانت تحتَه الدَّرْداءُ بنتُ أبي الدَّرْداء، قال: قَدِمْتُ عليهمُ الشّامَ، فوجدتُ أمَّ الدّرْداء، في البيت، ولم أجدْ أبا الدَّرْداء، قَالَتْ: أَتريدُ الحجَّ؟

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

قلتُ: نعَمْ، قالَتْ: فَادْعُ لنا بخير، فإنّ النبيَّ ﷺ كانَ يقولُ: «إنّ دعوةَ المَرْءِ المسلِم مُسْتَجابَةٌ لأَخِيهِ بظَهْرِ الغَيْبِ، عندَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ، كُلَّما دَعا لأَخِيهِ بخَيْرٍ قالَ: آمين، ولَكَ بِمِثْلٍ». قالَ: فلقيتُ أبا الدَّرْداء في السُّوقِ، فقالَ مثلَ ذلك، يأثُرُ عن النبي ﷺ.

لقد كان الرسول الكريم يربّي في أصحابه الروح الجماعية، ويشيع بينهم شعور الغَيْرِيَّة، فَيَلْفِتُهم في كل مناسبة إلى الإحساس بمعنى الأخوّة الشاملة، بحيث لا يبقى في حسّ الأخ المسلم مجال للأنانية الضيّقة الفردية، التي تُعْشي الأبصار، وتختِمُ على القلوب، وتُصْدِيء النفوس.

ومن لفتاته التربوية الرائعة التي تؤصِّل في النفس روحَ الأخوّة الجماعيّة، وتقتلع بذورَ الأنانية الفرديّة، ما قاله لرجل هتف داعياً: اللَّهم اغفر لي ولمحمد وحدَنا، قال له: «لَقَدْ حَجَبْتَها عَنْ ناسٍ كثيرينَ»[1] فعلّمه بذلك أن روح الإسلام تأبى على المسلم أن يستأثر بالخير وحدَه، ولو كان معه رسول الله ﷺ، وأن المؤمن ينبغي أن يحبّ لأخيه دوماً ما يحبّ لنفسه.

وبعد، فهذا هو المسلم الحق، مُحِبٌّ لإخوانه وأصدقائه، مخلِصٌ، ناصحٌ لهم، أمينٌ على سمعتهم وأعراضهم وأموالهم، في حضورهم وغَيْبَتِهِمْ، مؤثرٌ لهم على نفسه، متسامحٌ عفوٌّ غفور لِزلّاتِهِم، وهو معهم لطيفُ العشرة، موطَّأُ الكَنَف، حَسَنُ اللقاء، نقيُّ السريرة، نظيفُ اليد واللسان والجوارح، جَوادٌ لا يبخل، صادقٌ لا يكذب، وَدُودٌ لا يجفو، وفيٌّ لا يخون، شهمٌ لا يغدِر، مستقيمٌ لا يتلوّن، ولا عجبَ أن يتّصف بهذا كلِّه، إنه معجزةُ الإسلام، في صوغ الإنسان، إنه المسلم كما يريده الإسلام.

* * *

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.